رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

المجموعة الثانية
العدد ٦٠

السنة السابعة عشرة
رمضان ١٣٩٢ — اكتوبر ١٩٧٢

حول دعاوى بعض المستشرقين
ورجاء إلى علماء المسلمين

الأستاذ الدكتور لبيب السعيد
المدير العام لشئون القرآن بوزارة الأوقاف

إلمامة عن اختلاف القراءات :

١ — بين القراءات القرآنية اختلافات توقيفية يسيرة ، محصورة كلها ، ومضبوطة ، ومعلومة ، ولا زيادة فيها ولا نقص ، ولا تقديم فيها ولا تأخير ، وهى كلها لا تجهد عامة الناس ، فى الفهم والتدبر ، فضلا عن أن تجهد الدارس المدقق ، أو القارىء المتخصص .

والقراءات الثابتة القرآنية منزلة كلها من عند الله ، أو مأذون فى قراءتها من الله ، فقد تواترت تواتراً مقطوعاً به ، وشاملا للأصول والفرش ، عن نفس الرسول الذى أوتى القرآن ، وكلف إبلاغه للعالمين ، صلوات الله وسلامه عليه ، وقد قرأ بها المسلمون منذ كان الوحى ، ويستحيل عقلا أن يكونوا قد أمضوا القرون وهم يقرأون غير ما أنزل الله سبحانه .

وإذا كانت القراءات والروايات القرآنية قد أضيفت إلى قراء ورواة بأعيانهم ، فهذا لا يعنى إلا أن المضاف إليه اختار قراءة أو رواية ، وكان أضبط لها وأدوم ، وألزم قراءةً وإقراءً بها حتى نسبت إليه أو نسب إليها ، فهى - كما يقرر ابن الجزرى العالم الأشهر فى القراءات - إضافة اختيار ودوام ولزوم ، لا إضافة اختراع ورأى واجتهاد ، ومن هنا كان اختلاف القراء - عند المسلمين - صواباً بإطلاق ، وليس كاختلاف الفقهاء يعتبر - حتى عند أصحابه - صواباً يحتمل الخطأ .

٢ — ورأس الأسباب فى اختلاف القراءات هو أن القرآن نزل على سبعة أحرف ، كما ذكر النبى صلى الله عليه وسلم ، فيما أثبت أحد وعشرون صحابياً روى عنهم البخارى ومسلم ، وآخرون .

ونزول القرآن على سبعة أحرف كان من أسبابه : التيسير على الناس ، حيث كان العرب ، على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن اتحدت لغتهم الأم ، شعوبا وقبائل مختلفة اللهجات ، والمعروف أنه يصعب على الفرد عادة أن يستبدل بلهجته لهجة أخرى جديدة . روى الترمذى ـ فى هذا الشأن ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ياجبريل ! إنى بعثت إلى أمة أميين : فيهم العجوز ، والشيخ الكبير ، والغلام ، والجارية ، والرجل الذى لم يقرأ كتاباً قط .

ومن الأسباب أيضاً مسايرة الاختلاف فى طريقة الأداء ، وفى نبرات الصوت : فقد كان من العرب ـ فى لجر الاسلام ـ من يدغم ومن يظهر ، ومن يخفى ومن يبين ، ومن يميل ومن يفتح ، ومن يفخم ومن يرقق ، ومن يمد ومن يقصر ، إلى آخر كيفيات النطق المختلفة .

وسبب ثالث يرجع إلى ذات القرآن ، هو اختلاف بعض ألفاظه من حيث الغيبة والخطاب ، والتذكير والتأنيث ، والجمع والإفراد ، والتخفيف والتشديد .

افتراءات المستشرقين :

١ ـــ هذه الحقائق الواضحة ينكرها بعض المستشرقين ، بغير علم ولا هدى ، بل بخبث قصد ، وبجرأة على الحق ، وبعداوة للإسلام . ومن أساليبهم ـ فى هذا الشأن ـ أنهم يسحرون أعين الناس وعقولهم ، فيخيلون إليهم أن العلمية هى الوسيلة وهى الغاية ، بينما الأمر غير هذا .

وأشهر من تولى كِبْر هـــذا العدوان من المستشرقين : تيودور نولدكه F. Nœledeke وإجناتس جولد سيهر Goldziher Ignacz وآرثر جفرى Arthur Jeffery ، واللافت أنهم جميعا من غير المسلمين .

والمؤلم والمثير أن آراءهم استخفت بعض الدارسين المسلمين ، فروّجوا لها ، بل إن بعضهم انتحلها اعتقاداً منه بعظم قدرها .

٢ ـــ وأقدم أولئك الثلاثة : نولدكه ، الذى يصفه جولد سيهر بأنه زعيمه ، والذى وضع فى تاريخ القرآن كتاب : Gechichte des Qoɪans ، وهو كتاب

فتَح به صاحبه للطاعنين على القراءات باباً ، ومهد لهم مهاداً ، ويقول جفرى عن هذا الكتاب إنه أساس كل بحث فى القرآن فى أوربا .

ويقول نولدكه إنه يرتاب فى أكثر ما يتعلق بالقرآن من الروايات والأحاديث وأقوال المفسرين ، وحيلتنا مع نولدكه هنا قليلة ، فهو فعلا يطرح جانباً كل السنة الصحيحة الموثقة ، والتفسير المستقيم المعقول ، ثم إذا عثر على رواية ضعيفة أو شاذة أو باطلة أو منكرة ، فهو - عندئذ - يجعلها العمدة ، ويتخذها الدليل .

ومن أضل ما ذهب إليه هذا المستشرق إنكار قرآنية بعض ألفاظ القرآن : فمثلا ، أوائل بعض السور ليست - فى زعمه - إلا حروفا أولى أو أخيرة مأخوذة من أسماء بعض الصحابة الذين كانت عندهم نسخ من سور قرآنية معينة ، وعلى سبيل المثال لما يدعيه : السين : من سعد بن أبى وقاص ! ، والميم : من المغيرة ! ، والنون : من عثمان بن عفان ! ، والهاء : من أبى هريرة ! . . . وهكذا .

وهذا كله من الناحية الواقعية ادعاء مُفترى ، وقول لا أساس له ، ولا دليل عليه ، وهو يعنى شيئاً باهظاً لا يمكن أبداً أن يسيغه عقل عاقل ، وهو أن الأمة الاسلامية صحابةَ نبيِّها ، وتابعيهم ، وتابعى تابعيهم ، ورواتها ، وعلماءَها ، وكلَّ أبنائها فى المشارق والمغارب ، وعلى مدى تاريخهم الطويل ، وبأعدادهم التى لا تحصى ، كذابون ومجترئون ، تواطئوا ضد كتابهم ، وجاءوا فيه بأشياء من عند أنفسهم (١) .

٢ — وربما كان شر الثلاثة - من وجهة النظر الإسلامية - جولد سيهر صاحب كتاب « مذاهب التفسير الاسلامى » ، فقد سبق زعيمه فى حلبة الكيد للقرآن .

وقد أخطأ جولد سيهر - مثلما يخطىء أغلب المستشرقين - فى فهم النصوص القرآنية ، واشتبه عليه المتواتر من القراءات بالشاذ ، والمشهور بالشاذ ، ومن وراء ذلك ، كان منهجه ملتويا منحازا ، فقد كان مبلغ همه أن يجد شيئاً يستطيع به - ولو بالتدليس - أن يدلل على أن الاختلاف فى القراءات ليس عن توقيف ورواية ، وإنما عن هوى من القرّاء ، ولذلك ، فإنه - بعكس المسلمين - لم يأخذ ، فى الحكم

(١) أنظر فى الرد على مثل هذه الدعاوى : لبيب السعيد : الجمع الصوتى الأول للقرآن الكريم - الفصل الثانى ص ١٦١ - ٢١٨ .

على روايات القرآن ، بالسند الصحيح الممحص ، والتواتر المفصل الثابت ، وابتكر من لدنه ضلالات كثيرة ، واعتضد أحياناً بما لايجوز علمياً الاعتضاد به ، ولم يذعن للقاعدة الاسلامية الموثقة والمتبعة : قاعدة أن القراءة ـ منذ نزول القرآن ـ سنة يأخذها الآخر عن الأول ، شفاهاً ، فماً لفم .

ومن أخطاء جولد سيهر أنه يُرجع اختلاف القراءات إلى أسباب أهمها ـ كما ذكر أحد العرب الآخذين عنه والمنتحلين فكرته ـ « مسائل ظهرت بعد نزول الوحى ، من خاصية القلم الذى دون به القرآن الكريم ، فرسم أكثر حروف هذا القلم متشابه ، والمميز فيها هو النقط الذى لم يظهر إلا بعد نزول الوحى بأمد ، وكان هذا القلم خالياً فى بادىء أمره من الحركات » .

ونبادر ، فنردّ على هذا الزعم بأن الثابت المعقول هو أن تلقى المسلمين للقرآن وحفظهم إياه كانا سابقين للتسجيل الكتابى ، وحتى بعد الكتابة ، ظل المعوّل عليه فى تبليغ القران هو التلقين الشفهى ، وعند ما كتب عثمان المصاحف الأئمة ، وبعث بها إلى الأمصار ، جعل مع كل منها قارئاً ليقرىء الناس ، فأمر زيد بن ثابت أن يقرىء الناس بالمدينة ، وأرسل عبد الله بن السائب إلى مكة ، وعامر بن عبد قيس إلى البصرة ، وأبا عبد الرحمن السلمى إلى الكوفة ، والمغيرة بن شهاب إلى الشام .

وقد ضرب جولد سيهر أمثلة للاختلاف نتيجة عدم النقط ، فجاء هو نفسه بما ينقض دعواه :

قال إن كلمة « تستكبرون » فى قوله تعالى : « ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون » [1] . قرئت : « تستكثرون » بالثاء المثلثة [2] .

ونحن المسلمين نعلم أن القراءات السبع المتواترة والثلاث المشهورة بل الأربع الشاذة لا تعرف هذه القراءة المزعومة ، مع أنها ممكنة لو كان الأمر أمر النقط بحسب الفهم الخاص . وهكذا يشهد جولد سيهر ـ من حيث لم يقصد ـ على رأيه بالبطلان .

---

(١) سورة الأعراف / ٤٨ .

(٢) مذاهب التفسير الإسلامى ص ٩ من الترجمة العربية .

ومثل ثان ضربه هـذا المستشرق ليعزز به دعواه هو لفظ « بُشرا » فى قوله سبحانه : « وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته »[١] . فقد قرئت « نشراً » بالنون بدل الباء [٢] .

وقد تواترت عند عاصم بالباء الموَّحدة المضمومة وإسكان الشين ، أى بجمع « بشير » كنذير ونذر .

وتواترت عند ابن عامر بالنون مضمومة وبإسكان الشين، وهى مخففة من قراءة الضم.

وتواترت عند حمزة والكسائى وخلف بالنون المفتوحة وسكون الشين ، بمعنى ناشرة ، أو منشورة ، أو ذات نشر .

وتواترت عند نافع وابن كثير وأبى عمرو وأبى جعفر ويعقوب بضم النون والشين ، جمع ناشر ، كنازل ونزُل . وشارف وشُرُف [٣] .

فهيئة الرسم إذن ليست هى المرجع فى صحة القراءة كما يدعى جولد سيهر ، وإنما المرجع على الحقيقة كما يقرر المسلمون هو تواتر الرواية .

ومثل ثالث يسوقه هذا المستشرق ، هو كلمة : « إيَّاه » فى قوله عز وجل : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه »[٤] ، فقد قرئت : « أباه »[٥] .

ومع أن فى الإمكان النطق بهذا اللفظ بالباء بدل الياء فيما لو كان المعول على الخط وحده ، فإن قراء المسلمين جميعا يقرأون بالياء ، ويتفقون على أن قراءة الباء منكرة .

ويزعم جولد سيهر أن بعض القراء كانوا يغيرون القراءات بما ترضاه مقاصدهم ، وتسيغه أفهامهم وأذواقهم .

ففى قوله تعالى : « يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم . . . »[٦] ، يذكر جولد سيهر أن قتادة رأى أن الأمر بالقتل هنا

---

(١) سورة الأعراف / ٥٧ .
(٢) مذاهب التفسير الإسلامى ، نفس الصحيفة .
(٣) انظر مثلا : الدمياطى البنا : إتحاف فضلاء البشر ص ٢٢٦ .
(٤) سورة التوبة / ١١٤ .
(٥) مذاهب التفسير الإسلامى ، نفس الصحيفة .
(٦) سورة البقرة / ٥٤ .

شديد القسوة وغير متناسب مع الخطيئة ، فقرأ : « فأقيلوا »[1] ، ويقول جولد سيهر إنه يرى فى هذا المثال : « وجهة نظر موضوعية شاركت فى سبب اختلاف القراءة »[2] .

ولا نرى علينا من حق لجولد سيهر فى أن نناقش دعواه هذه ، فهى مرفوضة أصلا ، لأن « فأقيلوا » ليست من القراءات المتواترة ، ولا من القراءات المشهورة ، ولا حتى من الأربع الشواذ .

وقد ساق جولد سيهر طائفة أخرى مماثلة من الدعاوى ، وقد تعقبها كلها بالتفنيد مترجم كتاب « مذاهب التفسير الإسلامى » المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار ، الذى نبه - أحسن الله جزاءه - إلى أهم النزعات الدينية التى « لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب المستشرقين ، لا سيما فيما يتصل من الدين بسبب أو نسب ، يمليها عليهم إلف ملازم ، أو هوى متبع ، أو قصد جائر »[3] ، وأشار - رحمه الله - إلى « أن هناك أخطاء يتورط فيها المستشرقون لغرابة المادة العربية والاسلامية على تفكيرهم ، أو لقلة بصرهم بالذوق العربى ، وعجزهم عن التغلغل فى أسرار اللسان ومسالك البيان »[4] .

أما آرثر جفرى ، وهو أحدث الثلاثة تاريخا ، ففى مقدمته لكتاب « المصاحف لابن أبى داود » بعنوان :

Materials for the history of the text of the Quran

يحاول هو الآخر ، معتمدا بدعاوى نولدكه وشولى Nœledeke A. Schwally وغيرهما ، تحريف تاريخ القرآن عن بعض مواضعه ، ويريد ليطفىء فى صدور المسلمين أنوار التقديس لكتابهم ، وليوهى اعتقادهم بتوقيفيته .

فهو يدعى - بغير بينة - أن القراءات تطورت على الأيام ، ومعنى هذا - فيما هو واضح - أن الله تعالى لم ينزل القراءات بالشكل المتواتر عند المسلمين ، وأن النبى

---

(١) نفس المصدر ص ١٠ و ١١ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر ص ٤ .
(٤) نفس المصدر ص ٥ .

صلى الله عليه وسلم لم يقرأ بها هكذا ، وأن صحابته وتابعيهم لم يتلقوها ولم يقرأوا بها هكذا .

وقد احتمى جفرى ببعض الروايات المنكرة والأحاديث الموضوعة مثلما فعل زميلاه نولدكه وجولد سيهر . وممن توارى جفرى خلفهم ابن أبى داود الذى كذبه أبوه نفسه فى أكثر من حديث .

ويدعو جفرى الباحثين المسلمين إلى شىء عجيب : يدعوهم ، لينهجوا نهج باحثى اليهود والنصارى الذين شكوا فى صحة كتبهم المقدسة ، والذين نجحوا - كما يعبر - فى كشف ما ورد على هذه الكتب من تغيير وتبديل ، وهو - فى هذا - يقول بقصد خبيث مكشوف :

« فسر فى أيامنا هذه علماء الشرق كثيراً مما يتعلق بتفسير القرآن ، وإعجازه ، وأحكامه ، ولكنهم إلى الآن لم يبينوا لنا ما يستفاد منه التطور فى قراءته ، ولا ندرى - على التحقيق - لماذا كفوا عن البحث فى عصر له نزعة خاصة فى التنقيب عن تطور الكتب المقدسة القديمة ، وعما حصل لها من التغيير والتحوير ، ونجاح بعض الكتاب فيها » .

ويَعِدُ جفرى المستجيبين لدعوته : دعوة بحث القرآن لاكتشاف « التغيير والتحوير » فيه ، يعدهم مثل ما أحرز الباحثون فى كتب اليهود والنصارى : ذيوعاً لمباحثهم ، ونصراً على مخالفيهم .

وهو يتكلم عن الباحثين فى كتب اليهود والنصارى ، فيقول إن طريقتهم فى البحث أن يجمعوا الآراء والظنون والأوهام والتصورات بأجمعها ، ليستنتجوا - بالفحص والاكتشاف - ما كان فيها مطابقاً للمكان والزمان وظروف الأحوال ، معتبرين المتن دون الإسناد ، ويجتهدون فى إقامة نص التوراة والإنجيل . . . الخ .

ونحن نرد على جفرى بأن القرآن غير الكتب السابقة ، فهو بلغنا كلمة كلمة ، بل حرفاً حرفا ، بالتلقى الصحيح ، وبالرواية المتواترة التى تعنى أنه فى كل طبقة من طبقاتها يتوافر جمع من الناس يؤمن تواطؤهم على الكذب ، أو لا يتصور تواطؤهم عليه.

ويَرِدُ جفرى نفس المشرع المسموم الذى ورده جولد سيهر ، فيشير إلى الادعاء بأن المصاحف المكتوبة الأئمة - لخلوها من النقط والشكل - كانت تدعو القارىء - فيما بعد - أن يتولى بنفسه فقط قراءة النص القرآنى وضبطه بالشكل ، على مقتضى ما يفهمه هو من معانى الآيات ، وأورد جفرى مثلا لهذا كلمة « نعلمه » فقد كان الواحد - بزعم المستشرقين - يقرؤها : « يعلمه » ، والآخر : « نعلمه » ، والثالث : « تعلمه » ، والرابع : « بعلمه » . . . الخ [1] .

وقد قدمنا آنفا - ونحن نناقش جولد سيهر - أن هذا الرأى فاسد فيما يتعلق بالقرآن ، لأن المسلمين لم يعتمدوا - فى نقل القرآن - على خط المصاحف ، وإنما اعتمدوا على التلقى الشفهى ، ونضيف هنا أنهم اعتمدو أيضاً على حفظ القلوب والصدور ، وقد عُدَّ ذلك من أشرف خصائصهم « أناجيلهم فى صدورهم » ، ثم إن التبديل فى القرآن - على أى وجه وبأى شكل - ليس لأى مخلوق حتى ولو كان نبى الإسلام نفسه « وإذا تتلى عليهم ءاياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرءان غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم »[2] ، « تنزيل من رب العالمين ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين »[3] .

والاستقراء الموضوعى يؤدى إلينا أنه لم ينقل ، عبر القرون ، كتاب سماوى أو غير سماوى ، بالتواتر القطعى ، والإسناد الصحيح ، عن العدول الضابطين ، طبقة بعد طبقة ، مثلما وقع للقرآن ، وقد تلقوه عن النبى نفسه صلى الله عليه وسلم ، حرفاً حرفاً ، لم يهملوا منه حركة ، ولا سكونا ، ولا إثباتا ، ولا حذفا .

---

(١) مقدمة كتاب المصاحف ص ٧ .

(٢) سورة يونس / ١٥ .

(٣) سورة الحاقة / ٤٣ - ٤٧ .

رجاء إلى علماء المسلمين :

أما بعـــد :

فالمستشرقون - بدعاويهم تلك - وهى دعاوى تجد أحياناً بين العرب والمسلمين من يصدقها ويروّجها . . . المستشرقون بهذا يحاولون ضربنا فى مقتل ، يحاولون تشكيكنا فى قاعدة الاسلام وأساسه ، وأصل الأصول فى حياتنا إلى يوم القيامة .

ولهذا ، ألتفت التفات الآمل إلى علماء المسلمين فى كل مكان ، أرجوهم :

(١) التصدى العلمى العاجل لآراء المستشرقين بعامة ، وغير المسلمين منهم بخاصة ، حول القرآن ، والكشف عن حقيقة مقاصدهم ، وفساد مناهجهم ، مع دحض حججهم ، وإبطال دعاويهم .

(٢) تشجيع مقرئ الروايات القرآنية غير رواية حفص الذائعة فى مصر ، والتمكين لهم ولقراء هذه الروايات ، فى كل مجالات القراءة فى البلاد الاسلامية .

(٣) رفض الفكرة التى يدعو إليها الآن بعض المفكرين المسلمين ، والتى ترمى إلى طرح الروايات القرآنية المتواترة والمشهورة غير رواية حفص عن عاصم ، بقصد توحيد طريقة التلاوة ، وهو قصد غير سديد ، يحرم حلالا ، ويضيق واسعاً ، ويجنى على الكتاب العزيز ، ويحادّ السُّنة .

(٤) الإعلام ، بكل الطرق ، بأن الروايات القرآنية المتواترة والمشهورة كلها معجزة ، وكلها من عند الله ، ولا يجوز شرعاً المفاضلة بينها ، كما يحرم إهمال إحداها ، وكل مسلم مخير فى هذه الروايات .

(٥) توفير عدد التواتر الشرعى من الحفاظ لكل رواية من تلك الروايات ، فى كل مجتمع إسلامى ، صغر أو كبر ، وذلك بكل الطرق المستطاعة ، ومنها استكمال تنفيذ مشروع الجمع الصوتى الأول للقرآن الكريم ، وفق المخططات المرسومة له .

والله يبارك لنا فى القرآن العظيم ، ويهدينا الصراط المستقيم ؟

---

(١) انظر : لبيب السعيد : الجمع الصوتى الأول للقرآن الكريم وبواعثه ومخططاته ص٢١٨ - ٢٢٤